طوائف وشخصيات مسيحية بالمغرب

منذ ان انضم المغرب تحت لواء الاسلام انقطعت كل صلة بينه وبين الامم المسيحية التي تقلص نفوذها اذ ذاك من الشمال الافريقي والاندلس عقب الانتصارات الاسلامية المتتابعة.

وكان قيام دولة المرابطين بالمغرب وما صحبها من استنجاد ملوك الطوائف بالامراء اللمتونيين عاملا من العوامل التي ساعدت على فتح الباب من جديد لهذا الاتصال بين المغاربة والمسيحيين في مختلف الميادين. واتخذ هذا الاتصال صورا واشكالا تغيرت بتغير الظروف وتعاقب الدول ، وترك هذا الاتصال بعض الاثر في حياة المغرب الحربية والسياسية والاجتماعية .

والباحث في هذا الموضوع لا يكاد يعثر في المصادر العربية على ما يشفي الغليل ، وكل ما يجده اشارات عابرة مبعثرة لا تكفي لاعطاء صورة واضحة عن مدى هذا الاتصال ، او عن بعض صوره واشكاله.

وبعكس ذلك نجد المصادر الاوربية غنية بالمعلومات ، طافحة بالوثائق التي تزيح الستار عن هذا الجانب الحي من تاريخنا الوطني. فقد احتفظت لنا باسماء طائفة من الاشخاص ومدتنا بمعلومات غزيرة، نجدها في تقارير السفراء والقناصل وتآليف الكتاب والرحالة بل حتى في مذكرات الرهبان والاسرى ورسائلهم الشخصية ، وما كتب حول ذلك في فترة كان الصراع فيها على اشده بين الاسلام والمسيحية ببلاد الاندلس .

وقد جمع «دوكا ستري» في مجموعة «مصادر التاريخ المغربي» عددا وافرا من هذه الوثائق اعتمدنا عليها في هذه المحاولة . والفكرة العامة التي تتجلى عند دراسة هذه الوثائق هي ان العلاقات المختلفة بين ملوك المغرب وبين هؤلاء المسيحيين كانت تتسم بروح من التسامح شاملة من ابرز مميزاتها من جهة ان الملوك كانوا يتخذون زوجاتهم من رقيق النصارى حتى اصبح لهن فيما بعد نفوذ في اختيار اولياء العهد، ومن جهة اخرى فقد كان الاسارى المسيحيون بالمغرب وفي البلاد الاسلامية قاطبة يتمتعون بحرية في الدين وتسامح في المعاملة ومساواة في الحقوق لمن اعتنق الاسلام منهم في الوقت الذي كان الاسارى المسلمون بالبلاد

النصرانية (5) ولعل نفس الاسباب هي التي حملت اميرا اسبانيا هو ابن اخت الفونس الى الالتجاء الى الموحدين فقدم الى المغرب واظهر الاسلام وتسمى بابى زكرياء يحيى بن فنزاك واستوطن مكناس وبنى بها حماما شهيرا وقاد جيش الموحدين وتزى بزيهم (6) .

وكان من اثر هذا الاتصال بين المغاربة والمسيحيين ان كثرت اسواق الرقيق في كبريات المدن وانتشار التسرى بالجوارى الصقلبيات وامتلات قصور الملوك وكبار الموظفين بالمسيحيات اعتنق الاسلام البعض منهن وكان لهن مقام مرموق عند بعض الملوك .

وازدادت العلاقات الودية بين ملوك بنى مرين وامراء الاسبان فشاهدنا السلطان يعقوب المنصور المرينى ينجد طاغية الاسبان هرالده ويقدم له اعانة مالية (7).

ولم يخل جيش المرينيين من هؤلاء الجنود المسيحيين فقد كانت لهم كتيبة يتراسها القائد شريد الفرنجي الذى ساعد اهل فاس على الثورة ضد الامير ابى بكر المرينى ونصب نفسه حاكما على المدينة (8) وفي نفس الوقت كان الامير المرتضى المرينى يستنجد بملك اراغون فيرسل اليه هذا الاخير كتيبة مسيحية ساعدته في حصار سبتة بقيادة مسحيى يدعى كنزاليس اصبح فيما بعد يدعى بالقائد كنزالا.

ولا ادل على روح التسامح السائدة في ذلك العصر بين هاته الطوائف المسيحية وبين مختلف السكان من ان هذه الكتائب المسيحية كان لها امينها وقسيسها وكانت تباشر شعائرها الدينية في كنائسها الخاصة(9).

وقد قدر ملوك المغرب ما تستمتع به هذه الكتائب من نظام دقيق في خوض المعارك فاغدقوا عليها االعطاءات والامتيازات واتخذوا من رجالها حرسا خاصا تمتع بثقتهم . والى ذلك يشير ابن خلدون بقوله : (10)

---

5) نهاية الاندلس لعنان.
6) الروض الهتون فى اخبار مكناسة الزيتون.
7) الاستقصا
8) المصدر السابق.
9) من مقال للمؤرخ الباني نشر بمجلة المعرفة عدد 4
10) مقدمة ابن خلدون.

« صار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الفرنج في جندهم لان قتال اهل وطنهم كله بالكر والفر مع ان الملوك في المغرب انما يفعلون ذلك مع امم العرب والبربر وقتالهم على الطاعة . واما في الجهاد فلا يستعينون بهم حذرا من مما لا تهم على المسلمين ».

وازدادت هذه الطوائف المسيحية كثرة واهمية خلال العصر الوطاسي حيث هاجر من الاندلس الى المغرب عدد كبير من العرب واليهود المتنصرين فامتلات عواصم المغرب بهذه الطوائف التي اشتغلت بالصناعة والتجارة واحترفت الجندية وساهمت في تنشيط حركة القرصنة بالسواحل المغربية . ويذكر الراحالة الاوربيون الذين زاروا فاس في اواخر القرن السادس عشر ان المسيحيين كان لهم حي خاص يدعى «بربض النصارى».

ويؤكد المؤرخون الاوربيون ان علاقة الامراء الوطاسيين بالمسيحيين البرتغال كانت وثيقة وكان جيشهم يضم عدة آلاف من البرتغاليين استخدموهم مرارا في حروبهم ضد الاتراك.

ونجد آخر ملوكهم الامير ابا حسون الوطاسي يستنجد بملك اسبانيا شارلكان ويتبعه عبر تنقلاته في النمسا والمانيا حتى ظفر بمساعدة مالية اعانته على محاربة الاتراك واسترداد عرشه (11).

ونرى في عهد الدولة السعدية عددا من هؤلاء المسيحيين الذين اعتنقوا الاسلام وعملوا في صفوف المسلمين ويكفي ان نعلم ان معركة وادي المخازن الشهيرة كان يقودها رضوان العلج حاجب عبد الملك السعدي . وقد اشتهر هذا القائد بذكائه وتبصره وحسن سياسته وتدبيره وازدادت حظوته لدى المنصور فاسند اليه اسمى الوظائف حتى اصبح يلقب بالحاجب الطائع (12).

ويقول اليفرني ان المنصور الذهبي كان يختار عددا من هؤلاء الاسارى المسيحيين فيربيهم ويغدق عليهم النعم وينتقي من بينهم من يصلح للمهمات فاستخدم منهم في حاشيته الباشا محمود والقائد العلج والقائد عمر والقائد بيربيس . وكان يتخذ من هؤلاء العلوج قواد الجيش والحراس والامناء وحامل السيوف المزارق والاعلام . وترك لنا اليفرني وصفا لهذا الجيش وانظمته وقواعده وملابسه وهيئة ضباطه وترتيب صفوفه واستعراضاته في الظعن والاقامة (13) .

---

11) تاريخ الدولة السعدية لمؤرخ مجهول .
12) المصدر السابق.
13) نزهة الحادي

ونجد من بين هاته الشخصيات في عهد المنصور مسيحيا آخر من اصل برتغالي اعتنق الاسلام فقربه المنصور وعهد اليه بمهمة عسكرية هو «الباشا جوذر» الذي قاد الحملة المغربية الى السودان . ومن بين المسيحيين اللاجئين الى كنف المنصور مسيحي قدم من جنوة فاعتنق الاسلام وتزوج بيهودية اعتنقت الاسلام ايضا وانجبت له ولدا ادرك شاوا بعيدا فـي التصوف هـو «سيدي رضوان الجنوي» الذي كان يعد من شيوخ المنصور في علم الحديث(14)

وتفيدنا الوثائق التي نشرها «دوكاستري» ان خلفاء المنصـور كانـوا يتنافسون في الحصول على هؤلاء العلوج لاستخدامهم في قيادة الجند وصنع الاسلحة حتى ان المولى زيـدان السعـدي رفـض افتكـاك بعـض الاسارى الهولانديين والانجليز لشدة حاجته اليهم .

أما في عصر الدولة العلوية وبالاخص في عهد «المولى اسماعيل» فقد تكاثر عدد المسيحيين والعلوج بسبب حركة القرصنة التي ازدهرت اذ ذاك بسلا والرباط وتطوان عقب هجرة الموريسكسيين من الاندلس فانضم الى جيش القراصنة عدد من الاوربيين ينتمون الى جنسيات مختلفة وانتشرت بينهم حركة اعتناق الاسلام . ونذكر من بينهم الرئيس بيبي قائد اسطـول سـلا وبلامينو وكريبيو وكراسكو وبيلو وجانسن الذي اصبح يدعى فيما بعد بالرئيس موراطو وعهد اليه المولى اسماعيل بقيادة اسطول سلا (15).

ويضاف الى هذه الطوائف المختلفة طائفة اخرى من المسيحييـن الذيـن وقعوا في الاسر خلال غارات القراصنة على السواحل الاوربية وعلى السفن النصرانـيـة فـي عـرض البحــار او بعـد معــارك التطهيــر التـي قام بها المولى اسماعيل بالشواطىء المغربية المحتلة . ويقـدر المؤرخـون الاوربيون الاسارى في عهد اسماعيل العظيم بنحو اربعة آلاف ينتمـون الـى جنسيات مختلفة وكان يسمح للبعض منهم بالزواج مع المسيحيات ويتخذ من اولادهم حراسا للقصور والثكنات .

ويجب ان نشير هنا الى أن هذه الطوائف من الاسارى كانت تضم عددا من النساء تزوج بعضهن الملوك والامراء (16).

---

14) جذوة الاقتباس وسلوة الانفاس .

15) انظر بينزي وبرينو وكواندرو في تاليفهم عن حركة القرصنة

16) في تراجم ملوك المغـرب منذ عهد الامير علي بـن يوسـف المرابطي امثلة كثيـرة لتسري الملوك بالمسيحيات، وكانت هذه العادة شائعة في دول الاسلام شرقا وغربا منذ ابتداء العصر العباسي

ولم يكد المولى اسماعيل يفرغ من طرد الدخلاء من السواحل حتى بادر الى علاج هذه الحالة الناشئة من تكاثر الاسارى المسيحيين فلم يتركهم عالة على الدولة - خصوصا وان حركة ابتداء الاسارى وتبادلهم مع الدول الاوربية لم تتخذ اتجاها خاصا - بل قرر استخدامهم في بناء التحصينات والابراج والقصور والاسوار والمآثر العمرانية بمكناس وغيرها.

بيد اننا لا نعثر على شخصيات اكتيست من بين الاسارى حظوة لدى العاهل المغربي باستثناء شخصيتين : فيرناندو البرتغالي الذي كان يشرف على المنشآت العمرانية ، ومنصور العلج الذي اطلق اسمه فيما بعد على باب شهير من ابواب مكناس .

ولا يفوتنا هنا ان نشير الى الاختلاقات والمبالغات التي تطفح بها بعض المصادر الاوربية المغرضة عن سوء معاملة المولى اسماعيل للاسارى فقد دس المغرضون هذه الترهات في بعض كتب التاريخ لتشويه سمعة الملك العظيم مع ان الوثائق والتقارير الاصلية التي كتب البعض منها الاسارى انفسهم تثبت بطلان هذه الدعوى وتؤكد ان عدد الاسارى الذين وقع اعدامهم قليل ولم يقع تنفيذ حكم الاعدام فيهم الا نتيجة لخيانة او لجرائم ارتكبوها تستوجب ذلك الحكم الصارم.

ويجدر بنا ان نقدم للقارىء وصفا موجزا لحفلة من تلك الحفلات التي كانت تقام بمناسبة اعتناق الاسير المسيحي للديانة الاسلامية كما يصفها احد الاسارى (17).

فعند ما يبدي الاسير رغبته في اعتناق الدين المحمدي يقع اخراجه من السجن ويوتى به الى المسجد الاعظم صحبة قائد الاسارى وهناك امام القاضي والامام وجماعة من رجال الدين تلقن له الشهادة فيرددها مرارا الى ان ينطق بها سالبة ثم تلقن له بعد ذلك قواعد الدين ويخرج الجميع حيث يتألف موكب حافل فيمتطي الاسير صهوة جواد مطهم ويقبض بيمينه المرتفعة فوق راسه قضيبا طويلا اشارة الى التوحيد ويخترق الموكب ازقة المدينة في مظاهرة صاخبة تختلط فيها اصوات الرجال والاطفال بقرع الطبول وترنيم المزامير وزغاريد النساء فيصبح العلج منذ ذلك الحين فردا من افراد المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم .

ولا تفيدنا المراجع التاريخية شيئا عن مآل هذه الطوائف المسيحية بعد وفاة المولى اسماعيل وقيام الفتنة الكبرى في عهد ابنائه ويغلب على

---

17) انظر مذكرات مويط في مجموعة دوكاستري

الظن ان كثيرا من هؤلاء الاسارى فروا من معتقلاتهم وقل عددهم بتوالي السنين .

ففي عهد المولى عبد الله لا نجد ذكرا لهؤلاء الاسارى ولكن كتب التاريخ تحدثنا عن مغامرات مسيحي يدعى البارون دى ريبيرا الاسباني الاصل . فلسبب من الاسباب اعتقل هذا الشخص فى بلاده ففر من السجن وذهب الى هولاندا وهناك اعتنق المذهب البروتستاني وساقته الصدف الى التعرف بالقائد بيربيس قائد سفن القراصنة فصحبه الى المغرب وعرض خدمته على السلطان فاعجب بذكائه ونباهته وبالاخص لمعرفته العربية فاسند اليه احدى الوظائف واصبح يدعى بالخليفة عثمان (18).

ويتحدث القنصل تيني فى مذكراته عن هذا المغامر فيروى انه سمع من بعض المغاربة ان هذا العلج كان يعمل لمصلحة مغامر آخر يعمل على انشاء دولة بكورسيكا تعتمد على صداقة تونس والمغرب ومساعدتهما ويفكر فى وضع ديانة جديدة تستمد اصولها من القرآن والانجيل والتوراة.

وقضى هذا المغامر مدة فى خدمة الدولة ولكن شذوذه ادى الى طرده فقضى بقية حياته شريدا فى تطوان .

ومن بين الشخصيات البارزة فى هذا العصر شخصية اخرى من اصل الباني استوزره المولى محمد بن عبد الله يدعى السيد العربي افندى قادوس. وكان هذا الوزير من اشد الناس اتصالا بالملك لمقدرته ودهائه واليه يشير صاحب الجيش العرمرم بقوله :ـ

«كان السلطان يدعوه بافندى تعظيما له لانه من مواليه وممن نشأوا فى حجور تربيته وكان شعلة من الذكاء والفطنة وركنا شديدا من اركان الدولة المحمدية (19)

واسند السلطان عدة وظائف سامية لعلوج آخرين نجد فى مقدمتهم القائد ادريس الذى كان يقوم بوظيفته قائد المشور ، والمهندس كورنو الذى عهد اليه بتخطيط مدينة الصويرة، وبواسولان رئيس الحرس الملكي وغيرهم زيادة على كتيبة من الجند كلها من اصل اوربي. والى ذلك يشير القنصل تيني بقوله :

---

18) ذكريات عن المغرب تاليف دولامار تينير

19) الاتحاف ج 3 ص 337

«ان هذا السلطان العظيم ادرك بمهارته ان يستجلب صداقة دول اوربا بما كان تحت يديه من الاسارى الذين جلبهم قراصنته اثناء غاراتهم على الشواطىء الاوربية. فكانت هذه الدول تسالمه وتسعى فى مرضاته (20)

ويقول الاب كوادار ــ الذى كتب فصولا عن المغرب سنة 1860 ــ ان عدد الاسارى المسيحيين اذ ذاك كان يتراوح بين 300 و 400 وانهم كانوا يعملون فى مختلف المهن والصنائع ومعظمهم كان يعمل فى صفوف رجال المدفعية فى الجيش المغربى .

ومما تجب ملاحظته ان حركة القرصنة دخلت مرحلتها الاخيرة فى بداية عصر المولى عبد الرحمن .

على اننا لا نعدم ان نجد منهم شراذم ضئيلة

ففى عهد المولى عبد الرحمان نعثر على علج يدعى احمد سفيانو كان يقود كتيبة من الجيش المغربى فى معركة ايسلى فثار عليه الجند لخيانته وقتلوه خلال المعركة. ونجد مسيحيا آخر يدعى دوسولتى كان ضابطا فى الجيش الفرنسى بالجزائر وهاجر الى المغرب فاستوطن العرائش وسمى نفسه عبد الرحمان وهناك انشأ معملا للصابون واشتغل بالتجارة فى طنجة وبلغ امره الى السلطان فقربه اليه وعهد اليه بترصيف ازقة فاس . وبعد وفاة السلطان قربه ابنه المولى محمد فزوجه بجارية انجبت له ولدا اشتغل فيما بعد بدار القنصلية الفرنسية بطنجة (21)

ونعثر فى صفوف الجيش المحمدى على ضابط من اصل انجليزى اسلم وسمى نفسه اسماعيل فزوجه السلطان بجارية واسكنه بفاس وعهد اليه بمهمة تدريب الجنود بسوس .

وعند ما قدم الضابط الفرنسى ايركمان رئيس البعثة العسكرية الفرنسية الى فاس فى اواخر العهد الحسنى لم يجد فى الحاشية المخزنية سوى بعض العلوج يعدون على الاصابع منهم البارون دوسان الذى كان محاميا فاشلا بفرنسا فهاجر الى المغرب واسلم وتعاطى مهنة التطبيب ، ومنهم آخر من اصل بلجيكى كان يشتغل باصلاح الاسلحة، والمانى فر من

---

20) المصدر السابق ص 263

21) على هذا العلج تتلمذ مولاى احمد الصويرى رئيس المهندسين فى العهد الحسنى

جيش اللفيف الاجنبي، وبرتغالي كان قنصلا لدولته فاسلم وانخرط في سلك موظفي المخزن وكلفه السلطان بمرافقة بعثة الطلبة المغاربة الى فرنسا .

وقد كان الضابط الفرنسي ايركمان نفسه من المقربين للسلطان نظرا لخبرته بالفنون الحربية وسعة اطلاعه فعهد اليه السلطان بمختلف المهمات . واندمج في البيئة المغربية فاصبح يتكلم العربية ويرتدي الزي المغربي ورافق المولى الحسن في عدد من رحلاته وتنقلاته والف هذا الضابط كتابا عن المغرب من امتع ما كتب عن حالة البلاد في ذلك العصر (22)

وعلى سبيل الاستطراد نضيف الى هذه القائمة شخصيتين مسيحيتين قدمتا الى المغرب قصد السياحة والتبشير : اسباني يدعى دومينكو باديا الذي تظاهر بالاسلام وسمى نفسه «علي باي العباسي» وطاف بأنحاء المغرب واتصل برجال الدولة وسجل معلومات دقيقة لفائدة دولته (23) ثم الراهب الفرنسي الشهير دو فوكو الذي طاف المغرب والصحراء متنكرا في زي يهودي وسجل ما جمعه من معلومات في مجلد ضخم .

ولعل اغرب هذه الشخصيات هي شخصية الانجليزي «ماك لين» الذي كان ضابطا في الجيش البريطاني وعمل في كندا وافريقيا وجبل طارق واستقر اخيرا بطنجة لسبب مقصود وهناك اتصل بالاوساط المغربية وكبار الموظفين الى ان اصبح مدربا للجيش المغربي في العهد الحسني وبقي في هذا المنصب 25 سنة وصحب السلطان في معظم رحلاته وكان يتكلم العربية ويرتدي اللباس المغربي وتمكن من مرافقة اعضاء السفارة المغربية الى لندن في اوائل العهد العزيزي.

ونضيف الى هذا النوع من الشخصيات الاجنبية التي تمتعت بمقام سام في هذا العصر الدكتور «لناريس» الفرنسي الذي كان يتمتع بحظوة كبرى عند المولى الحسن اذ كان طبيب السلطان الخاص ومستشاره في الشؤون الدولية وهو الضابط الاجنبي الوحيد الذي رافق المولى الحسن في رحلته الى تافيلالت .

---

22) المغرب الحديث تأليف ايركمان

23) قدم الى طنجة سنة 1803 فتجول بالمغرب وطرابلس ومصر ومكة ووصف كل مشاهداته في حديث مفصل طويل.

ولا ننس ايضا الراهب الاسباني الشهير الاب «ليرتشوندي» الذي احاطه المولى الحسن بعنايته واسند اليه ترجمة الوثائق السياسية من العربية الى اللغات الاوربية وعهد اليه بمرافقة السفارة المغربية الى الفاتيكان سنة 1888 (24)

وتأتي «شريفة وزان» وهي مسيحية انجليزية تدعى «مس كين» كانت موظفة في القنصلية الامريكية بطنجة فاعتنقت الاسلام وتزوجها الحاج عبد السلام الوزاني فاصبح لها نفوذ كبير في وزان وكتبت تاليفا عن المدينة وعادات سكانها .

ونلاحظ ان المغرب عرف في اوائل القرن الحالي فترة من ادق الفترات في تاريخه حيث استفحلت مطامع الدول الاجنبية فيه وظهرت بوادر النزاع بين الدول الاستعمارية على اقتسام الاسلاب في رقعة الممالك الاسلامية فتقاطرت على المغرب افواج من المسيحيين سعيا في الظاهر لعرض خدماتهم وفنونهم وصناعاتهم بينما كانوا يعملون في الحقيقة لمصلحتهم أو لفائدة الدول التي ينتمون اليها . فلم يكد المولى الحسن ينتقل الى رحمة ربه حتى شاهد المغرب جحافل من الاجانب تفد عليه من كل صوب وتتستر تحت اسماء مختلفة من صحافيين ودبلوماسيين وقناصل وعلماء ومهندسين واطباء وتجار ومغامرين ومتجسسين وكان الهدف الذي تسعى اليه كل طائفة هو الحصول على المعلومات المختلفة وكشف الستار عن نقط الضعف في جهاز الدولة واعداد العدة للقضاء على استقلال البلاد، وفي نفس الوقت الذي كانت فيه الدول الاوربية تتنازع على اقتسام المغرب وتعقد الاوفاق فيما بينها على كيفية الاقتسام، كانت تخطب ود المغرب وتبعث اليه السفارات والبعثات الديبلوماسية لاعانته على اصلاح شؤونه ويقوم رسلها من صحافيين وكتاب باصدار التآليف والنشرات المغرضة لتشويه سمعة المغرب وتبرير تدخل الاوربيين في شؤونه وتحطيم سيادته (25).

---

24) الاتحاف ج 3

25) انظر كتاب الدكتور فير : اسرار المولى عبد العزيز وكتاب «المغرب الذاهب» لهاريس

ويحسن بنا ان نختم المقال بالكلام عن شخص لعله «اخر علج من هؤلاء العلوج فهو علج من اصل المانى ونشأ بفرنسا ورحل الى تركيا والافغان حيث جمع ثروة طائلة ثم ساح بفرنسا واسبانيا وهاجر الى المغرب بعد ما بدد كل ماله وبداع من اليأس انخرط في اللفيف الاجنبى بالجزائر ثم فر والتحق بالجيوش الريفية واعتنق الاسلام وتعلم العربية وسمى نفسه الحاج وشارك في عدة معارك الى ان انتهت الحرب فألقى الفرنسيون عليه القبض وحكموا عليه بالاعدام .

الصديق بن العربي